الرّد على الدّهريين لجمال الدين الأفغانى

بقلم
الأستاذ محمد طاهر الجبلاوى

من رواد الأصلاح فى العالم الإسلامى . اشتهر باسم السيد جمال الدين واسمه فى الأصل محمد جمال الدين . أما أبوه فاسمه السيد صفدر من علماء الدين وأصحاب البيوتات ووجوه القوم فى بلاد الأفغان . ويرجع نسبه إلى الترمذى العالم المحدث ويرتقى إلى الحسين بن على عليه السلام . وصفدر لفظ فارسى لقب به الإمام على ابن أبى طالب .

وكانت للسيد صفدر منزلة كبيرة عند الأفغانيين . يجلونه ويحترمونه وله سيادة على جزء من الأراضى الأفغانية .

وقد ولد السيد جمال الدين سنة ١٢٥٤ من الهجرة واختلف فى مقر ميلاده والوطن الذى ينسب إليه . فبعضهم يقول إنه ولد فى أسعد أباد من أعمال كابل وينسبه إلى الأفغان وبعضهم يقول إنه ولد فى أسد أباد وينتسب إلى فارس ويروى أنه إنما انتسب إلى الأفغان تهرباً من سيطرة الحكومة الأيرانية . إلا أن أكثر من ترجموا للسيد جمال الدين متفقون على الرأى الأول مستندين إلى أقواله وأقوال عارفيه .

وقد انتقل به أبوه إلى كابل عاصمة الأفغان فى الثامنة من عمره وعنى بتربيته عناية فائقة ونشأه تنشئة قويمة ، قابلت فى نفس الصبى تربة صالحة، فأثمرت خير الثمار . ثم وكل أمره إلى أساتذة أجلاء تلقى عنهم مختلف العلوم فى الفقه والشريعة وعلوم المنطق والرياضة وبعض نظريات الطب . واصطحبه فى أسفاره وكان يطلعه على أحوال البلاد وأخبار الناس فبعث فى نفسه حب الأسفار والتطلع إلى معرفة أحوال الدول . ولم تشغله هذه الأسفار عن تلقى العلوم أينما حل . وقد ظهرت بوادر ذكائه الخارق فى الثانية عشرة من عمره .

روى : « أنه نزل بطهران هو ووالده فسأل عن أكبر علمائها وتوجه إلى مجلس درسه فى اليوم التالى ليوم وصوله إليها . قال : فوجدته جالساً بين طلابه يقرأ كتاباً عربياً ويشرح مسألة من المسائل العلمية ولاحظت أنه شرحها شرحاً مقتضباً فطلبت منه أن يعيد شرحها بصورة أكثر تفصيلا حتى يتفهمها الجميع . فتعجب الشيخ لجرأتى وفضولى ولكنى أجبته بأن طلب العلم لا فضول فيه . ثم قمت بقراءة تلك المسألة وتفسيرها فتحرك الشيخ من مكانه . فظننت أنه يريد بى شراً ، ولكنه أقبل على وضمنى إلى صدره وقبلنى ثم أرسل إلى والدى يستدعيه . وأمر أن تشترى لى عباءة وعمامة . وأن يلبسونى العباءة وقام هو بلف العمامة » .

وارتحل جمال الدين إلى الهند ولم يتجاوز السادسة عشرة من عمره فمكث فيها سنة وبضعة أشهر درس خلالها العلوم الأوربية والرياضية .

إقامته فى بلاد الأفغان

وأقام جمال الدين فى أفغانستان خمس سنوات شغل فى أثنائها أرقى المناصب وأيقظ الروح الوطنية بين الأهلين فتقبلوا نصائحه وأحاطوه بالتعظيم والتكريم وكان أمير الأفغان محمد أعظم خان يقربه إليه ولا ينفذ أمراً إلا بمشورته وقد حفظ له جمال الدين مكانته فى نفسه بعد تخليه عن الحكم .

رحيله إلى الهند

واتجه جمال الدين إلى الهند وكان الإنجليز يخشون تأثيره على الهنود فأحاطوه برقابة شديدة وتتبعوه بالجواسيس حيث سار . وعلى الرغم من ذلك فقد استطاع أن يبذر فى الهند بذور الوطنية . ومن كلماته التى كان يوجهها إليهم :

« هبوا للمطالبة بحقوقكم إنكم ملايين من البشر فلو كنتم ذباباً لكان طنينكم يصم آذان الإنجليز » فلما رأى الدموع تنهمر من عيون سامعيه خاطبهم بقوله :

« اعلموا أن البكاء ليس من أخلاق الرجال ، فانهضوا للمطالبة بحقوقكم دون خوف ولا تردد فلا حياة لقوم لا يستقبلون الموت فى سبيل الاستقلال بثغر باسم » .

وقد هزت كلماته النفوس ورأى الإنجليز فيها الخطر عليهم فطالبوه بمغادرة البلاد ونقلته الحكومة الإنجليزية على نفقتها فى إحدى سفنها إلى السويس فنزل مصر وأقام بها أربعين يوماً تعرف خلالها إلى جلة علمائها وفى مقدمتهم الإمام محمد عبده ثم رحل إلى تركيا سنة ١٢٨٧ للهجرة ١٨٧٠ ميلادية ونزل عاصمتها فلما علم الصدر الأعظم بقدومه سعى إليه بنفسه ورحب به ونهض جمال الدين كعادته ببث دعوته للاصلاح فأثار ذلك حقد الحاقدين واشتطوا فى الكيد له عند الخليفة فاضطر الصدر الأعظم إلى أن ينصح له بمغادرة البلاد حتى ينحسم النزاع . .
وتحول مسعاه إلى مصر فجاءها سنة ١٢٨٨ هـ ١٨٧١ م فى عهد رياض باشا ناظر النظار بها فأكرم وفادته وأجرى عليه راتباً شهرياً لما عهده فيه من سداد الرأى والمقدرة على استمالة القلوب واستثارتها ضد الاستعمار .

وما كاد خبر قدومه إلى مصر يذاع فيها حتى أسرع إليه طلاب العلم ورواد الحرية يغترفون من معين علمه ويتلمسون منه القدوة الحسنة .

وأخذ جمال الدين يبصرهم بأمور دينهم ويحثهم على المطالبة بحقوقهم فى الحرية والاستقلال وجمع حوله فريقاً من العلماء والكتاب والخطباء ودعاهم إلى تحقيق الغاية التى يرمى إليها بالكتابة والخطابة وتلقين الدروس ومن أقواله فى ذلك :

« لا جامعة لقوم لا لسان لهم ، ولا لسان لقوم لا آداب لهم ، ولا عزة لقوم لا تاريخ لهم ، ولا تاريخ لقوم إذا لم يقم منهم أساطين تحمى وتحيى آثار رجال تاريخها فتعمل عملهم وتنسج على منوالهم » .

وتولى جمال الدين الكتابة فى الصحف وإلقاء المحاضرات فى المنتديات وتلقين الدروس الدينية والوطنية وكان لصيحته أثر كبير فى النفوس فأيقن المستعمرون أن هذا المصلح الكبير قد كشف أساليبهم وزعزع ثقة بعض الجهلاء فيهم .

وأحس ولاة الأمر من أسرة محمد على أن جمال الدين قد لفت الأنظار إلى ما حل بالبلاد من النكبات بسبب إسرافهم وفساد حكمهم .

فأوعزوا إلى بعض رجال الدين من موظفى الحكومة أن يطعنوا فى عقيدته الدينية ويرموه بالزندقة . ولما كانت فكرة الدين هى السلاح الماضى الذى شهره جمال الدين

فقد رأوا أن يحاربوه بنفس السلاح . ولكن كانت حركة جمال الدين قد اتسع نطاقها وأفكاره قد انتشرت إلى حد بعيد ، وتلاميذه قد عظم شأنهم ، فان أعداءه لم يفلحوا فى مناهضته بهذه الأسلحة .

ولم يكف جمال الدين عن نشر دعوته على الرغم من محاربة السلطات الإنجليزية والمصرية له حتى غدر الخديوى توفيق به وأمر بطرده من البلاد المصرية . فقبض عليه وهو يسير فى الطريق إلى منزله ليلا واقتاده رجال البوليس إلى محطة القاهرة وأركبوه القطار إلى السويس وليس معه مال ولا عتاد إلا نفسه العامرة بالإيمان .

ولقيه قنصل إيران وهو على هذه الحال فعرض عليه مبلغاً من المال فأبى وقال : « احتفظوا بالمال فأنتم أحوج إليه . إن الليث لا يعدم فريسته حيثما ذهب » وقد وصف الإمام محمد عبده خروج جمال الدين من مصر فقال :

« لا ريب فى أن الانزعاج بنفى جمال الدين كان عاماً ، والكدر كان تاماً ، ولكن جناب الخديو أظهر سروره بما فعل ، وتحدث به فى محضر جماعة من المشايخ على مائدة الافطار فى رمضان .

فأظهر الطرب بذلك من كان لا يعرف لنفسه قيمة فى العلم والفضل فى محضر الشيخ جمال الدين . . وألزمت الجرائد بنشر الأمر الصادر بالنفى والتقريع الشديد مما لم يكن يستحق الرجل . كما أنه كان فيه تشنيع جارح على من كانوا يجتمعون عليه فنشره البعض وأبت إحدى الجرائد نشره فعطلت . على أن هذه الشدة لم تزد الأفكار إلا حدة ولا الألسن إلا جرأة ولا الاحساس بضرورة الأصلاح إلا نمواً وظهوراً . ولم تكن حكومة مصر كريمة فى معاملته ، فوصفته بالزندقة وسمته ضلال الدين » .

وإذا كان جمال الدين قد غادر مصر على هذه الصورة المؤلمة فان تعاليمه لم تغادر أرضها وبذور الوطنية التى بذرها قد أثمرت وأنبتت فيها القادة والزعماء الذين حملوا الراية من بعده وكان من أثرها ثورة عرابى الكبرى فى مصر .

جمال الدين فى فرنسا

واشترك جمال الدين فى فرنسا مع جماعة من المصريين فى إنشاء جمعية سميت « جمعية العروة الوثقى » واستدعى تلميذه الأكبر الإمام محمد عبده الذى كان قد نفى من البلاد المصرية للاشتراك معه فى هذا العمل فلبى . وكانت هذه الجمعية ترمى إلى رفع شأن الإسلام والمسلمين وتوحيد كلمتهم وكشف أغراض المستعمرين . وقد أصدرت صحيفة باسمها سميت « جريدة العروة الوثقى » وكانت سلاحاً قوياً لنصرة الشرق والشرقيين مما جعل المستعمرين يصادرونها أينما كانت وقد منعوا دخولها مصر والهند وأحصوا أسماء المشتركين فيها ووضعوهم تحت الرقابة وصدرت القوانين فى مصر بمعاقبة من يحملها ولكن على الرغم من ذلك فقد كان صوتها يصل إلى سائر الأنحاء .

وحاول الإنجليز استمالة جمال الدين وعرضوا عليه عرش السودان فأجابهم « إن السودان ليس ملكاً لبريطانيا حتى تتصرف فى عرشه وتعرضه على » .

جمال الدين فى روسيا

وقد رحل جمال الدين إلى روسيا وفى نفسه أن يحقق بعض آماله فى محاربة الاستعمار فى الشرق ونصرة المسلمين فى تلك البلاد . وعلم بقدومه قيصر روسيا فدعاه إلى زيارته ودارت بينهما محادثات تناولت حال إيران . فعرض جمال الدين لاستبداد الشاه وحرمانه الرعية من حقوقهم فقال له القيصر وقد أحس أ . ما يقال عن الشاه يقال فيه :

« إننى أرى الحق مع الشاه . كيف يرضى ملك من الملوك أن يتحكم فيه فلاحوه » وقال جمال الدين : « أعتقد يا جلالة القيصر أنه خير لعرش الملك أن يكون ملايين الرعية أصدقاء له بدلاً من أن يكونوا أعداء يترقبون الفرص ويكنون فى الصدور سموم الحقد ونيران الكراهية » .

عودة جمال الدين إلى إيران

وعاد جمال الدين إلى إيران بدعوة ملحة من الشاه فعادت الطمأنينة إلى قلوب أبنائها وتوقع الناس إصلاح الحال ولكن جمال الدين ما كاد يستقر به المقام حتى أعلن دعوته إلى الإصلاح كعادته أينما سار . ولكن دعاة السوء من الحكام والحاشية اندفعوا إلى الشاه يوقعون بينه وبين جمال الدين ويحذرونه مغبة الإصلاح الذى يدعو إليه وقد دار بينه وبين الشاه الحديث الآتى :

قال الشاه : « أيصح أن أكون يا حضرة السيد وأنا ملك ملوك الفرس كأحد أولاد الفلاحين » .

فقال جمال الدين : « إعلم يا حضرة الشاه أن تاجك وعظمة سلطانك وقوائم عرشك ستكون بالحكم الدستورى أعظم وأنفذ وأثبت مما هى الآن .

والفلاح والعامل والصانع فى المملكة يا حضرة الشاه أنفع من عظمتك ومن أمرائك واسمح لإخلاصى أن أؤديه صريحاً قبل فوات وقته .

« لا شك يا حضرة الشاه أنك رأيت وقرأت عن أمة استطاعت أن تعيش دون أن يكون على رأسها ملك . ولكن هل رأيت ملكاً عاش دون أمة ورعية » .

وقد انصرف جمال الدين من لدن الشاه والحقد تغلى مراجله فى صدره .

وكانت كلمة الإصلاح تثير الشاه ولا تحتملها نفسه التى فطرت على حب الفساد الذى استشرى فى بلاده فجند قوة مسلحة وأرسلها إلى مقر جمال الدين وقبض عليه وهو مريض بطريقة عنيفة وأمر بسحبه وهو مريض على الثلوج إلى دار الحكومة ثم ساقه الجنود المشاة والفرسان وهو مسلسل فى فصل الشتاء خارج البلاد .

ولم يستطع جمال الدين أن ينسى هذه المعاملة القاسية ولم ينس إيران . وجعل همه تحقيق مطالبها والنيل من الشاه مما أدى فى النهاية إلى قتله .

عودة جمال الدين إلى تركيا

سافر جمال الدين إلى تركيا فاستقبله السلطان عبد الحميد بحفاوة بالغة . وأعدله قصراً للإقامة فيه وكان جمال الدين يحضر مجالس السلطان ويخاطبه بصراحة تامة وفى أحد اجتماعاتهما أفضى إليه السلطان بقوله :

« إن ملتمسى من حضرتكم أن تنشئ وتؤسس اتحاداً واتفاقاً قوياً ثابت الأركان لا يقبل الخلل بين الشعوب الإسلامية حتى يمكن بفضل تلك الوحدة أن تمد أمم الجامعة الإسلامية يد المودة والأخاء بعضها إلى بعض وتنهض بالصناعة والعلوم فى ظل الاستقلال القومى والاتحاد الإسلامى ، ولكى يتم لها التوفيق بعون الله تعالى لاسترجاع تلك القوة العظيمة السابقة ولا تتأخر عن ركب السعادة والرقى » وتقبل جمال الدين هذا المطلب بسرور عظيم وعمل على تنفيذه إلا أن السلطان أراد أن يفرض نفسه على القائمين بهذا العمل ويحول سائر الجهود إلى صالحه .

وكان الحسد قد دب إلى قلوب حاشيته لنجاح جمال الدين فى نشر دعوته للإصلاح فدسوا له عند السلطان . وعلم السلطان عبد الحميد بمقتل الشاه ناصر الدين الذى حاربه جمال الدين ففزع وخشى أن يكون هذا مآله فشدد الرقابة على السيد الأفغانى حتى صار شبه سجين فى قصره .

وقد ظهرت على السيد جمال الدين أعراض مرض عضال قيل إنه السرطان أنشب أنيابه فى فمه ولم يشف

منه ولم تعرف أسبابه وتوفى يوم الثلاثاء ٩ من مارس سنة ١٨٩٧ ميلادية .

وعقب موته أرسل السلطان بعض موظفى قصره ليستحوذوا على أوراقه ومؤلفاته .

وأمر السلطان بدفنه لساعتين من وفاته . وسار نعشه فى لفيف من رجال الشرطة خوف وقوع فتنة من أنصاره الذين كانوا فى شك من أسباب موته .

دعوة جمال الدين

يرى جمال الدين أن الروح الصليبية لم تبرح كامنة فى صدور رجال الغرب وأن الاستعمار يعمل على إضعاف الروح الدينية والاجتماعية والاقتصادية فى البلاد الإسلامية ليتحكم فيها . ويدعو إلى اتحاد المسلمين لدفع هذا الخطر والأخذ بأسباب التقدم التى اتبعها الغرب والوقوف على عوامل تفوقه ومقدرته للعمل بها .

وكان يعمل جاهداً ومناضلا لتحرير البلاد الإسلامية من أيدى المستغلين الأجانب وترقية شئونها فى الداخل والخارج .

ويدعو إلى نبذ الآراء الخرافية التى لحقت بالدين الإسلامى فى أيام الضعف . وقد راع جمال الدين أن يرى حالة البلاد الإسلامية تسير من سىء إلى أسوأ وأن يرى الدول الاستعمارية تتربص بها الدوائر ، والأمر كله فى يد الولاة والحكام الخاضعين للمستعمر وليس للشعب شأن يذكر فى أمر من أموره .

وقد ثارت نفسه لما يراه من الخلاف بين الدول الإسلامية ، وكثرة الأحزاب السياسية المختلفة العناصر والمآرب فعمل على التوفيق وجمع الكلمة ودعا إلى ارتباط هذه الدول وتضامنها لتكون منها أمة واحدة يخشاها المستعمرون .

وقد جمع أنصاره ومريديه وصارحهم بحالة بلادهم وما دب فيها من الفساد وبين لهم أن آباءنا وأجدادنا لم يبلغوا أعلى مراتب المجد إلا لأنهم كانوا متمسكين بحقائق دينهم متحدين كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً . فلما انحرف المسلمون صاروا لقمة سائغة فى فم المستعمر لأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

فأثرت فى نفوسهم هذه الدعوة وهبوا لتنفيذ تلك المبادئ الرشيدة التى وضعها ذلك المصلح الكبير .

وأحس الإنجليز خطورة هذه الدعوة على أغراضهم الاستعمارية فعملوا على محاربتها بمختلف الطرق ومن خلفهم بعض الأمراء والأجراء من أنصار المستعمرين .

وكان سلاح جمال الدين الكتابة والخطابة والتأثير الشخصى وكان يشعل النار حيث كان وله كلمات وخواطر نفاذة فى شتى المناسبات ورسالته فى الرد على الدهريين التى نقلها من الفارسية إلى العربية الإمام الشيخ محمد عبده جمعت على قصرها ما لم تجمعه المطولات وقد اعتمد فيها على البراهين العقلية والحجج البديهية . وقد راعه انتشار المذهب الذى أطلق عليه اسم « النيتشرية » أو المذهب الطبيعى فشرع قلمه لبيان فساد هذا المذهب وإثبات ما للدين من فضل فى نشر المدنية والسمو بالإنسان إلى معارج الرقى .

ورد على مذهب داروين وغيره من المذاهب الغربية . التى بذرت بذور الالحاد — وان لم يكن داروين نفسه ملحداً — ورأى أن جماعة « النيتشرية » كما سموا أنفسهم متأثرون بآراء بعض فلاسفة الغرب الماديين الذين يرون أن العالم له أساس واحد هو المادة ولا شىء غير المادة وأن كل شىء فى الحياة يخضع للمادة ، فأنكروا الدين وأنكروا الروح وأنكروا بادئ المخلوقات .

وقد فند جمال الدين دعوى الماديين بطريقته المبنية على الحجج البيانية والبراهين العقلية وآرائه المستمدة من روح الدين . وأثبت أن فلاسفة الغرب رواد المذهب المادى لم يفعلوا سوى أن أحيوا مذهباً درس من مذاهب

الأغريق وقد عرفه الفرس والزنادقة فى بعض عصور الإسلام . وقسم الفلاسفة إلى مؤمنين وملحدين متقدمين ومحدثين وألم بمذاهب الفريقين ورد على الحجج المادية والماديين ببداهة العقل ومنطق البداهة .

وأبان جمال الدين فضل الدين فى رقى الأمم وحضارتها وأثر الالحاد فى سقوطها وشرح مزايا الإسلام فى شحذ العقول وتطهير النفوس .

وقد كان لهذه الرسالة أثرها البالغ فى الهند وسائر بلاد المسلمين . وقد قضت قضاء تاماً على أمل المبشرين والمستعمرين الذين عملوا على نشر هذا المذهب وعملوا له جاهدين .

ولجمال الدين خاطرات وكلمات مأثورة جمعها صديقه السيد « محمد باشا المخزومى » فى كتاب سماه « خاطرات جمال الدين الأفغانى الحسينى » ويشمل مجمل آرائه وأفكاره ونظراته فى أهل الشرق والغرب ، أخلاقاً وسياسة واجتماعاً .

وقد اشترك مع الإمام محمد عبده فى إصدار مجلة العروة الوثقى التى ذاع صيتها وانتشرت فى سائر البلاد الشرقية . وقد هزت أركان الاستعمار وكان لها ما لها من الأثر فى بث روح الوطنية وإيقاظ النفوس .

وفيما يلى نبذ من خاطرات ذلك المصلح الكبير وبعض فقر من العروة الوثقى وقد أشرنا بكلمة خاطرات إلى « خاطرات جمال الدين » وبكلمة « وثقى » إلى العروة الوثقى .

داء الشرق

جمعت ما تفرق من الفكر ، ولممت شعث التصور ، ونظرت إلى الشرق وأهله ، فاستوقفتنى الأفغان ، وهى أول أرض مس جسمى ترابها — ثم الهند وفيها تثقف عقلى — فإيران بحكم الجوار والروابط وإليها كنت صرفت بعض همتى — فجزيرة العرب ، من حجاز مهبط الوحى ومشرق أنوار الحضارة — ومن يمن وتبابعتها ، وأقيال حمير فيها — ونجد وعراق ، وبغداد وهارونها ، ومأمونها — والشام ودهاة الأمويين فيها والأندلس وحمراؤها ، وهكذا كل صقع ودولة من دول الإسلام فى الشرق وما آل إليه أمرهم فيه اليوم .

فالشرق ! الشرق ! وقد خصصت جهاز دماغى لتشخيص دائه وتحرى دوائه ، فوجدت أقتل أدوائه ، وما يعترض توحيد الكلمة فيه — داء انقسام أهليه وتشتت آرائهم ، واختلافهم على الاتحاد ، واتحادهم على الاختلاف ، فقد اتفقوا على ألا يتفقوا ، ولا تقوم على هذا لقوم قائمة . (خاطرات) .

— بالضغط والتضييق تلتحم الأجزاء المبعثرة ، والأزمة تلد الهمة . (خاطرات) .

الأسرار والاعلان

لا أرى فى هذا الكون من القول أو الفعل ما يكون كتمانه لازماً ، إلا ما كان فى علانيته شين ومعرة . ولا يكون الكمال النسبى فى البشر إلا إذا كثر إعلانهم وقل كتمانهم فدولة تكتم عن أمتها كل أمورها — لا خير فيها ولا هى بالدولة الأمينة .

ورجل يرى كل شىء يقال له أو يجب أن يقوله — سراً مكتوماً — لا يرجى إلا نفاقه . وما هو بالرجل الرجل ولا بشبه رجل « من أحب فليعلن » والمحبة هنا على مطلق المعنى ، لكل شىء حق ومستحسن بالفطرة من أقوال وأفعال وصفات وذات . فمن أحب الصدق من القول لا يتكتم به ، ولا يخشى بأساً من إعلانه وبالعكس إذا أحب الكذب والكاذب فخليق به أن لا يعلن ذلك . (خاطرات) .

الأحزاب السياسية فى الشرق

الأحزاب السياسية فى الشرق نعم الدواء ، ولكنها مع الأسف لا تلبث حتى تنقلب إلى بئس الداء .

نحسن نحن الشرقيين تأليف الأحزاب السياسية ، لطلب الحرية والاستقلال ، وكل العالم لنا أصدقاء ، ونضطر لتركها والكل لنا أعداء .

والسبب فى ذلك عدم التكافؤ فى القوى بين الأمة وأحزابها السياسية . يقوم الحزب السياسى بعنصر ضعيف ، أو بأفراد قلائل بينهم اللسن ، والمحنك ، ويعلنون تفانيهم فى خدمة الأمة لتحريرها من ربقة الاستعباد ، ويسرون خـدمة أنفسهم . فتتآلف على أهل الحزب القلوب وتجتمع حولهم الكلمة ، بسوق الضرورة ، وداعى الحاجة ، ويستحسن عملهم الغريب وبهومهم الدخيل . شأن الحوادث المستجدة فى انقلاب الأمم من طور إلى طور .

فالأمة تتخيل من وراء وعود الحزب سعادة ، ورفاها وحرية واستقلالا ومساواة على أوسع شكل قد لا يمكن حصوله فى البعيد الآجل ، فضلا عن القريب العاجل . فيؤازرون الحزب بكل معانى الطاعة والانقياد والنصرة والتضحية . . . الخ .

فاذا ما تم للحزب ما طلبه من الأمة واستحكم له الأمر ، ظهرت هنالك فى رؤساء الأحزاب الأثرة والأنانية ، ومد حب الذات عنقه ، فتتقلص من القلوب تلك الطاعة وتنكمش النفوس عن ذلك الانقياد وتحصل بالنتيجة النفرة العامة .

فنضطر عندئذ لترك الحزب ، وينفرط بالطبيعة عقده ، والكل له أعداء .

(خاطرات) .

فى المرآة

إن قوة المرأة فى ضعفها وفضل الرجل فى قوته وأن يكون تجاه المرأة ضعيفاً — وفى مذهبى أن تبادل النوعين بالمزيتين خروج عن حكمة الفطرة ، ومغالبة للطبيعة . (خاطرات) .

إنى لا أرى فى الذين يقولون بمساواة المرأة بالرجل وإشغالها بما خلق له هو ولم تتكلف به الأم « المرأة » — إلا أنهم يحاولون نقض حكمة الوجود الذى إنما صار وجوداً وكوناً وهيئة بوجود العاملين « المرأة والرجل » . (خاطرات)

أسطورة

قالوا إن زنجياً أسود هائل المنظر غليظ الشفتين مقلوب المشفرين جاحظ العينين أحمر الحدقتين بشع الوجه أفطس الأنف منكر الصورة وكان يحمل ولداً فى ليلة مظلمة ويسير به فى زقاق من أزقة بغداد . والولد كلما نظر إليه يفزع ويبكى وينتحب ويصيح ويعول وكلما اشتد به الفزع مسح الزنجى رأسه وقال لا تخف يا ولدى فانى معك وأنيسك وحافظك من كل شر . وبعد تكرار هذه الملاطفات من الزنجى للصبى قال الصبى يا سيدى إنما خوفى وفزعى منك لا من وحشة الظلام .

هذا شأن حكومة انكلترا مع المصريين ، كلما اشتدت الخطوب وتحطمت المصائب وزاد الخلل فى البلاد المصرية مسحت حكومة بريطانيا على ظهر توفيق باشا ووزرائه بيدها الناعمة «وإنما هى نعومة الثعبان» أو أقبلت على الأهالى تمنيهم بوعودها المرونقة. وتقول لهم لا تحزنوا فأنى معكم وجميع المصريين من توفيق باشا إلى وزرائه إلى عامة الأهالى يجأرون وينادون إنما

خوفنا وجزعنا منك . وراحتنا واطمئناننا بتنحيك عنا وتركنا وشأننا . (عروة) .

« الرد على الدهريين »

مظاهر الماديين

تخالفت مظاهر الماديين فى الأمم والأجيال المختلفة ، فتخالفت أسماؤهم . فكانوا تارة يسمون أنفسهم بسمات الحكماء ، وينتحلون الحكيم لقباً لأفرادهم وأحياناً كانوا يتسمون بسيما دافع الظلم ورافع الجور ، وكثيراً ما تقدموا لمسارح الأنظار تحت لباس عراف الأسرار وكشفة الحقائق والرموز الواصلين من كل ظاهر إلى باطنه ومن كل بارز إلى كامنه ، وقد كانوا يظهرون فى أوقات بدعوى السعى فى تطهير الأذهان من الخرافات ، وتنوير العقول بحقائق المعلومات ، وتارات يتمثلون فى صور محبى الفقراء وحماة الضعفاء وطلاب خير المساكين . وكثيراً ما تجرءوا على دعوى النبوة ولكن لا على سنن سائر المنبئين الكذبة . كل ذلك توسلا لأجراء مقاصدهم وترويج مفاسدهم .

كيفما ظهر الماديون وفى أية صورة تمثلوا وبين أى قوم نجموا كانوا صدمة شديدة على بناء قومهم ، وصاعقة مجتاحة لثمار أمتهم وصدعاً متفاقما فى بنية جيلهم ، يميتون القلوب الحية بأقوالهم ، وينفثون السم فى الأرواح بآرائهم ، ويزعزعون راسخ النظام بمساعيهم فما رزئت أمة ولا منى بشرهم جيل ، إلا انتكث فتله وسقط عرشه ، وتبددت آحاد الأمة وفقدت قوام وجودها .

غايات النتشريين

إنهم وضعوا مذاهبهم على بطلان الأديان كافة وعدوها أوهاماً باطلة ومجعولات وضيعة ، وبنوا على هذا أن لا حق لملة من الملل أن تدعى لنفسها شرفاً على سائر الملل اعتماداً على أصول دينها . بل الأليق بها على رأيهم أن تعتقد أنها ليست أولى من غيرها بفضيلة ولا أجدر بمزية . ولا يخفى ما يتبع هذا الرأى الفاسد من فتور الهمم وركود الحركات الإرادية عن قصد المعالى . ذهبوا إلى أنه لا حياة للإنسان بعد هذه الحياة ، وأنه لا يختلف عن النباتات الأرضية ، تنبت فى الربيع مثلا وتيبس فى الصيف ثم تعود تراباً والسعيد من يستوفى فى هذه الحياة حظوظه من الشهوات البهيمية .

وبهذا الرأى الفاسد أطلقوا النفوس من قيد التأثم ودفعوها إلى أنواع العدوان من قتل وسلب وهتك عرض ، ويسروا لها الغدر والخيانة وحملوها على فعل كل خبيثة والوقوع فى كل رذيلة ، وأعرضوا بالعقول عن كسب الكمال البشرى وأعدموها الرغبة فى كشف الحقائق وتعرف أسرار الطبيعة .

حكماء اليونان الأقدمون

أثبت ثقاة المؤرخين أن حكماء اليونان انقسموا فى القرن الرابع والثالث قبل المسيح إلى فئتين ذهبت إحداهما إلى وجود ذات مجردة عن المادة والمدة مخالفة للمحسوسات فى لوازمها منزهة عن لواحق الجسمانية وعوارضها وأثبتت أن سلسلة الموجودات مادية ومجردة تنتهى إلى موجود مجرد واحد من جميع الوجوه مبرأ الذات عن التأليف والتركيب ومحال عند العقل تصور التركيب فيه . وجوده عين حقيقته ، وحقيقته عين وجوده . وهو المصدر الأول والموجد الحقيقى والمبدع لجميع الكائنات مجردة كانت أو مادية . واشتهرت هذه الطائفة بالمتألهين « الخاضعين لله » ومنهم فيثاغورث وسقراط وأفلاطون وأرسطو ومن أهل مذهبهم كثير . وذهبت أخرى الطائفتين إلى نفى كل موجود سوى المادة والماديات وأن وصف الوجود مختص بما يدرك بالحواس الخمس لا يتناول شيئاً وراءه وعرفت هذه

الطائفة بالماديين . ولما سئلوا عن منشأ الاختلاف فى صور المواد وخواصها والتنوع الواقع فى آثارها نسبه الأقدمون منهم إلى طبيعتها .

. . . ثم اختلف هؤلاء بعد اعتماد أصلهم هذا فى تكوين الكواكب وتصوير الحيوانات وإنشاء النباتات ، فذهب فريق منهم إلى أن وجود الكائنات العلوية والسفلية ونشأة المواليد على ما نرى إنما هو من الاتفاق وأحكام الصدفة وعلى ذلك اتقان بنائها وإحكام نظامها لامنشأ له إلا الصدفة . كأنما أدت بهم سخافة الفهم إلى تجويز الترجيح بلا مرجح وقد أحالته بداهة العقل .

ورأس القائلين بهذا القول ديمقراطيس . ومن رأيه أن العالم أجمع أرضيات . سماويات مؤلف من أجزاء صغار صلبة متحركة بالطبع . ب حركتها هذه ظهرت أشكال الأجسام وهيأتها بقضاء العماية المطلقة .

وذهب فريق إلى أن الأجرام السماوية والكرة الأرضية كانت على هيئتها هذه منذ أزل الآزال ولا تزال . ولا ابتداء لسلسلة النباتات والحيوانات . وزعموا أن فى كل بذرة كامنة ثم نبات وفيه بذرة إلى غير نهاية . وعلى هذا زعموا أن فى كل جرثومة من جراثيم الحيوانات حيواناً تام التركيب . وفى كل حيوان كامن فى الجرثومة جرثومة أخرى كذلك إلى غير نهاية . .

وزعم فريق ثالث أن سلسلة النباتات والحيوانات قديمة بالنوع كما أن الأجرام العلوية وهيآتها قديمة بالشخص ولكن لا شىء من جزئيات الجراثيم الحيوانية والبذور النباتية بقديم . وإنما كل جرثومة وبذرة هى بمنزلة قالب يتكون فيه ما يشاكله من جرثومة وبذرة أخرى .

وفاتهم ملاحظة أن كثيراً من الحيوانات الناقصة الخلقة قد يتولد عنها حيوان تام الخلقة . وكذلك الحيوان التام الخلقة قد يتولد عنه ناقصها أوزائدها .

ومال جماعة منهم إلى الابهام فى البيان فقالوا إن أنواع النباتات والحيوانات تقلبت فى أطوار وتبدلت عليها صور مختلفة بمرور الزمان وكرور الدهور حتى وصلت إلى هيآتها وصورها المشهودة لنا وأول النازعين إلى هذا الرأى « أبيقور » أحد أتباع « ديو جينس الكلبى » ومن مزاعمه أن الإنسان فى بعض أطواره كان مثل الخنزير مستور البشرة بالشعر الكثيف ثم لم يزل ينتقل من طور إلى طور حتى وصل بالتدريج إلى ما نراه من الصورة الحسنة والخلق القويم ولم يقم دليلا ولم يستند إلى برهان فيما زعمه من أن مرور الزمان علة لتبدل الصور وترقى الأنواع .

القول بالحدوث

ولما كشفت علوم الجيولجيا عن بطلان القول بقدم الأنواع رجع المتأخرون من الماديين عنه إلى القول بالحدوث ثم اختلفوا فى بحثين . الأول بحث تكون الجراثيم النباتية والحيوانية . فذهب جماعة إلى أن جميع الجراثيم على اختلاف أنواعها تكونت عندما أخذ التهاب الأرض فى التناقص ثم انقطاع التكون بانقضاء ذلك الطور الأرضى وذهبت أخرى إلى أن الجراثيم لم تزل تتكون حتى اليوم خصوصاً فى خط الاستواء حيث تشتد الحرارة .

وعجزت كلتا الطائفتين عن بيان السبب لحياة تلك الجراثيم حياة نباتية أو حيوانية خصوصاً بعد ما تبين لهم أن الحياة فاعل فى بسائط الجراثيم موجب لالتئامها حافظ لكونها وأن قوتها الغازية هى التى تجعل غير الحى من الأجزاء حياً بالتغذية . فاذا ضعفت الحياة ضعف تماسك البسائط وتجاذبها ثم صارت إلى الانحلال .

وظن قوم منهم أن تلك الجراثيم كانت مع الأرض عند انفصالها عن كرة الشمس وهو ظن عجيب ولا ينطبق على قولهم ان الأرض عند الانفصال كانت جذوة

نار ملتهبة وكيف لم تحترق تلك الجراثيم ولم تمح صورها فى تلك النيران المستمرة .

والبحث الثانى من موضع اختلافهم صعود تلك الجراثيم من حضيض نقصها إلى ذروة كمالها وتحولها من حالة الخداج (نقص التكوين) إلى ما نراه من الصور المتقنة والهيآت المحكمة والبنى الكاملة قائل بأن لكل نوع جرثومة خاصة به ، ولكل جرثومة طبيعة تميل بها إلى حركة تناسبها فى الأطوار الحيوية وتجتذب إليها ما يلائمها من الأجزاء الغير الحية ليصير جزأ لها بالتغذية ثم تجلوه بلباس نوعه وقد غفلوا عما أثبته التحليل الكيماوى من عدم تفاوت بين نطفة الإنسان ونطفة الثور والحمار مثلا . وظهور تماثل النطف فى العناصر البسيطة فما منشأ التخالف فى طبائع الجراثيم مع تماثل عناصرها ؟

أصل الأنواع

ومنهم ذاهب إلى أن جراثيم الأنواع كافة خصوصاً الحيوانية متماثلة فى الجوهر متساوية فى الحقيقة . وليس بين الأنواع تخالف جوهرى ولا انفصال ذاتى ومن هذا ذهب صاحب هذا القول إلى جواز انتقال الجرثومة الواحدة من صورة نوعية إلى صورة نوعية أخرى بمقتضى الزمان والمكان وحكم الحاجات والضرورات وقضاء سلطان القواسر الخارجية .

ورأس القائلين بهذا القول (دروين) وقد ألف كتاباً فى بيان أن الإنسان كان قرداً ثم عرض له التنقيح والتهذيب فى صورته بالتدريج على تتالى القرون المتطاولة وبتأثير الفواعل الطبيعية الخارجية حتى ارتقى إلى برزخ « أوران أوتان » ثم ارتقى من تلك الصورة إلى أول مراتب الإنسان فكان نصف البهم وسائر الزنوج ومن هناك عرج بعض أفراده إلى أفق أعلى وأرفع من أفق الزنجيين فكان الإنسان القوقاسى .

وعلى زعم دروين عن الأشجار القائمة فى غابات الهند والنباتات المتولدة فيها من أزمان بعيدة لا يحددها التاريخ إلا ظناً وأصولها تضرب فى بقعة واحدة وفروعها تذهب فى هواء واحد وعروقها تسقى بماء واحد فما السبب فى اختلاف كل منها عن الأخرى فى بنيته وأشكال أوراقه وطوله وقصره وضخامته ورقته وزهره وثمره وطعمه ورائحته وعمره فأى فاعل خارجى أثر فيها حتى خالف بينها مع وحدة المكان والماء والهواء . أظن أن لا سبيل إلى الجواب سوى العجز عنه .

وإن قيل له هذه أسماك بحيرة أورال وبحر كسبين مع تشاركها فى المأكل والمشرب وتسابقها فى ميدان واحد نرى فيها اختلافاً نوعياً وتبايناً بعيداً فى الألوان والأشكال والأعمال فما السبب فى هذا التباين والتفاوت ؟ فلا أراه يلجأ فى الجواب إلا إلى الحصر (العجز عن الكلام) .

وهكذا لو عرضت عليه الحيوانات المختلفة البنى والصور والقوى والخواص وهى تعيش فى منطقة واحدة ولا تسلم حياتها فى سائر المناطق أو الحشرات المتباينة فى الخلقة المتباعدة فى التركيب المتولدة فى بقعة واحدة ولا طاقة لها على قطع المسافات البعيدة لتجلو إلى تربة تخالف تربتها فماذا تكون حجته فى علة اختلافها كأنها تكون كسفاً لا كشفاً .

بل إذا قيل له أى هاد هدى تلك الجراثيم فى نقصها وخداجها وأى مرشد أرشدها إلى استتمام هذه الجوارح والأعضاء الظاهرة والباطنة ووضعها على مقتضى الحكمة وإيداع كل منها قوة على حسبه ونوطها بكل قوة فى عضو أداء وظيفته وإيفاء عمل حيوى مما عجز الحكماء عن درك سره ووقف علماء الفسيولجيا دون الوصول إلى تحديد منافعه وكيف صارت الضرورة العمياء معلماً لتلك الجراثيم وهادياً خبيراً لطرق جميع الكمالات الصورية والمعنوية لا ريب أن يقبع قبوع القنفذ وينتكس بين أمواج الحيرة يدفعه ريب ويتلقاه شك إلى أبد الأبدين .

وكأنى بهذا المسكين وما رماه فى مجاهيل الأوهام ومهامه الخرافات إلا قرب المشابهة بين القرد والإنسان وكأن ما أخذ به من الشبه الواهية الهينة يشغل بها نفسه عن آلام الحيرة والحسرات والعماية ، وإنا نورد شيئاً مما تمسك به .

فن ذلك أن الخيل فى سيبريا وبلاد الروسية أطول وأغزر شعراً من الخيل المتولدة فى البلاد العربية وإنما علة ذلك الضرورة وعدمها .

ونقول إن السبب فيما ذكره هو عين السبب لكثرة النبات وقلته فى بقعة واحدة لوقتين مختلفين حسب كثرة الأمطار وقلتها ووفور المياه ونزورها أو هو علة النحافة ودقة العود فى سكان البلاد الحارة والضخامة والسمن فى أهل البلاد الباردة بما يعترى البدن من كثرة التحلل فى الحرارة وقلته فى البرودة .

ومن واهياته ما كان يرويه (داروين) من أن جماعة كانوا يقطعون أذناب كلابهم فلما واظبوا على عملهم هذا قروناً صارت الكلاب تولد بلا أذناب : كأنه يقول حيث لم تعد للذنب حاجة كفت الطبيعة هبته . وهل صمت إذن عن سماع خبر العبرانيين والعرب وما يجرونه من الختان ألوفاً من السنين لا يولد مولود حتى يختن وإلى الآن لم يولد واحد منهم مختوناً إلا لأعجاز .

ما أفاد الدين من العقائد والخصال

أكسب الدين عقول البشر ثلاث عقائد وأودع نفوسهم ثلاث خصال كل منها ركن لوجود الأمم وعماد لبناء هيئتها الاجتماعية وأساس محكم لمدنيتها وفى كل منها سائق يحث الشعوب والقبائل على التقدم لغايات الكمال والرقى إلى ذرى السعادة ومن كل واحدة وازع قوى يباعد النفوس عن الشر ويزعها عن مقارفة الفساد ويصدها عن مقاربة ما يبيدها ويبددها .

«العقيدة الأولى» : التصديق بأن الإنسان ملك أرضى وهو أشرف المخلوقات ، «والثانية» : يقين كل ذى دين بأن أمته أشرف الأمم وكل مخالف له فعلى ضلال باطل «والثالثة» : جزمه بأن الإنسان إنما ورد هذه الحياة الدنيا لاستحصال كمال يهيئه للعروج إلى عالم أرفع وأوسع من هذا العالم الدنيوى والانتقال من دار ضيقة المساحات كثيرة المكروهات جديرة أن تسمى بيت الأحزان ، وقرار الآلام إلى دار فسيحة الساحات خالية من المؤلمات لا تنقضى سعادتها ولا تنتهى مدتها .

لا يغفل العاقل عما يتبع هذه العقائد الثلاث من الآثار الجليلة فى الاجتماع البشرى والمنافع الجمة فى المدنية الصحيحة وما يعود منها بالاصلاح على روابط الأمم ، وما لكل واحدة من الدخل فى بقاء النوع والميل بأفراده لأن يعيش كل منهم مع الآخر بالمسالمة والموادعة والأخذ بهمم الأمم للصعود فى مراقى الكمال النفسى والعقلى .

ومن البين أن لكل عقيدة لوازم وخواص لا تزايلها فمما يلزم الاعتقاد بأن الإنسان أشرف المخلوقات ترفع المعتقد بحكم الضرورة عن الخصال البهيمية واستنكافه عن ملابسة الصفات الحيوانية . ولا ريب أنه كلما قوى الاعتقاد اشتد به النفور عن مخالطة الحيوانات فى صفاتها ، وكلما اشتد هذا النفور سما بروحه إلى العالم العقلى . وكلما سما عقله أوفى على المدنية وأخذ منها بأوفر الحظوظ حتى قد تنتهى به الحال إلى أن يكون واحداً من أهل المدنية الفاضلة يحيا مع إخوانه الواصلين معه إلى درجته على قواعد المحبة وأصول العدالة ، وتلك نهاية السعادة الإنسانية فى الدنيا وغاية ما يسعى إليه العقلاء والحكماء فيها .

فهذه العقيدة أعظم صارف للإنسان عن مضارعة الحمر الوحشية فى معيشتها ، والثيران البرية فى حالتها ، ومضاربة البهائم السائمة ، والدواب الهاملة والهوام الراشحة لا تستطيع دفع مضرة ولا التقية من عادية

ولا تهتدى طريقاً لحفظ حياتها وتقضى آجالها فى دهشة الفزع ووحشة الانفراد .

هذه العقيدة أشد زاجر لأبناء الإنسان عن التقاطع المؤدى لافتراس بعضهم بعضاً كما يقع بين الأسود الكاسرة والوحوش الضارية والكلاب العاقرة . وأشد مانع يدفع صاحبها عن مشاكلة الحيوانات فى خسائس الصفات وهذه العقيدة أحجى حاد للفكر فى حركاته وأنجح داع للعقل فى استعمال قوته وأقوى فاعل فى تهذيب النفوس وتطهيرها من دنس الرذائل .

إن شئت فارم بنظر العقل إلى قوم لا يعتقدون هذا الاعتقاد بل يظنون أن الإنسان حيوان كسائر الحيوانات ثم تبصر ماذا يصدر عنهم من ضروب الدنايا والرذائل وإلى أى حد تصل بهم الشرور وبأى منزلة من الدناءة تكون نفوسهم وكيف أن السقوط إلى الحيوانية يقف بعقولهم عن الحركات الفكرية .

ومن خواص يقين الأمة بأنها أشرف الأمم وجميع من يخالفها على الباطل أن ينهض آحادها لمكاثرة الأمم فى مفاخرها ومساماتها فى مجدها ومسابقتها فى شرائف الأمور وفضائل الصفات ، وأن يتفق جميعها على الرغبة فى فوت جميع الأمم والتقدم عليها فى المزايا الإنسانية ، عقلية كانت أو نفسية ومعاشية كانت أو معاديه ، وتأبى نفس كل واحد عن عطاء الدنية والرضى بالضيم لنفسه أو لأحد من بنى أمته ، ولا يسره أن يرى شيئاً من العزة أو مقاماً من الشرف لقوم من الأقوام حتى يطلب لأمته أفضله وأعلاه ، ذلك أنه بهذا الاعتقاد يرى أبناء قومه أليق وأجدر بكل ما يعد شرفاً إنسانياً .

فان جارت صروف الدهر على قومه فأضرعتهم أو ثلمت مجدهم أو سلبتهم مزية من مزايا الفضل ، لم تستقر له راحة ولم تهدأ له حمية ، ولم يسكن له جيشان ، فهو يمضى حياته فى علاج ما ألم بقومه حتى يأسوه أو يموت فى أساه .

فهذه العقيدة أقوى دافع للأمم إلى التسابق لغايات المدنية ، وأمضى الأسباب بها إلى طلب العلوم والتوسع فى الفنون والابداع فى الصنائع . إنها لأبلغ فى سوق الأمم إلى منازل العلاء ، ومقام الشرف ، من غالب قاسر ومستبد قاهر عادل .

وإن أردت فالمح بعقلك حال قوم فقدوا هذا اليقين ، ماذا تجد من فتور فى حركات آحادهم نحو المعالى . وماذا ترى من قصور فى هممهم عن درك الفضائل وماذا ينزل بقواهم من الضعف ، وماذا يحل بديارهم من الفقر والمسكنة وإلى أى هوة يسقطون من الذلة والهوان خصوصاً إذا بغى عليهم الجهل فظنوا أنهم أوفى من سائر الملل .

ومن مقتضيات الجزم بأن الإنسان ما ورد هذا العالم إلا ليتزود منه كمالا يعرج به إلى عالم أرفع ، ويرتحل به إلى دار أوسع وجناب أمرع ليمرع واديه وتجنى حلبه . إن من أشربت هذه العقيدة قلبه ينبعث بحكمها وينساق بحاديها لإضاءة عقله بالعلوم الحقة والمعارف الصافية خشية أن يهبط به الجهل إلى نقص يحول دونه مطلبه ثم ينصرف همه لابراز ما أودع فيه من القوة السامية والمدارك العقلية والخواص الجليلة باستعمالها فيما خلقت له فينجلى كماله من عالم الكمون إلى عالم الظهور ، ويرتقى من درجة القوة إلى مكانة الفعل فهو ينفق ساعاته فى تهذيب نفسه وتطهيرها من دنس الرذائل . ولا يناله التقصير فى تقويم ملكاته النفسية ، وينزع لكسب المال من الوجوه المشروعة متنكباً عن طرق الخيانة ووسائل الكذب والحيلة ، معرضاً عن أبواب الرشوة مترفعاً عن الملق الكلبى والخداع الثعلبى ، ثم ينفق ما كسب فى الوجه الذى يليق وعلى الوجه الذى ينبغى وبالقدر الذى ينبغى . لا يأتى فيه باطلا ولا يغفل حقاً عاماً أو خاصاً .

فهذه العقيدة أحكم مرشد وأهدى قائد للإنسان إلى المدينة الثابتة المؤسسة على المعارف الحقة والأخلاق

الفاضلة وهذا الاعتقاد أشد ركن لقوام الهيئة الاجتماعية التى لا عماد لها إلا معرفة كل واحد حقوقه وحقوق غيره عليه ، والقيام على صراط العدل المستقيم . هذا الاعتقاد أنجح الذرائع لتوثيق الروابط بين الأمم . إذ لا عقد لها إلا مراعاة الصدق والخضوع لسلطان العدل ، فى الوقوف عند حدود المعاملات . هذا الاعتقاد نفحة من روح الرحمة الأزلية تهب على القلوب ببرد الهدوء والمسالمة . فان المسالمة ثمرة العدل والمحبة ، والعدل زهر الأخلاق والسجايا الحسنة ، وهى غراس تلك العقيدة التى تحيد بصاحبها عن مضارب الشرور ، وتنجيه من متائه الشقاء ، وتعاسة الجد . وترفعه إلى غرف المدينة الفاضلة وتجلسه على كرسى السعادة .

وقد يسهل عليك أن تتخيل جيلا من الناس حرم هذه العقيدة فكم يبدو لك فيه من شقاق ، وكذب ونفاق ، وحيل وخداع ، ورشوة واختلاس . وكم يغشى نظرك من مشاهد الحرص والشره والغدر والاغتيال وهضم الحقوق والجدال والجلاد ، وكم تحس فيه من جفاء للعلم وعشوة عن نور المعرفة .

